على هامش النقد

النماذج البشرية المهموسة !

للأســـتاذ سيد قطب

حينما يذكر هذا التعبير « نماذج بشرية » تتواكب على النفس ، وتخطر فى الخيال ، عشرات أو مئات أو ألوف من السحن المتمايزة ، والملامح المتغايرة . سحن الأجسام والطبائع ، وملامح النفوس والجوارح ، من هؤلاء البشر الذين نلتقى بهم فى الحياة اليومية ، أو نسمع عنهم فى القصص والتاريخ ، أو نستشرف إليهم فى الأساطير والخيال

وكل نموذج من هـذه النماذج « أصيل » فى بابه — حين ننظر إلى الحياة بعين فنان — وكلها جدير بأن « يسد خانته » ويؤدى دوره على المسرح الحافل الرحيب الذى تعرض فيه الحياة شتى النماذج وشتى الأدوار .

فإذا أردنا أن نضيق من هـذه النظرة ، فننظر بعين الفرد الإنسانى ورغباته وميوله وما يحب فى هـذه الحياة وما يكره من الطبائع والأشكال ؛ فلنا حينئذ أن نحب نموذجاً ونؤثره على نموذج ؛ ولكن ليس لنا أن نطلب من النماذج الأخرى جميعاً أن تستحيل إلى المثال الذى نحبه ؛ لأن فى هـذا تضييقاً لمسرح الحياة !

ولكن الأستاذ « مندور » كما يستهويه لون واحد من ألوان الأدب ، لا يفرق بين الجيد والردىء من أمثلته ، ما دام الجيد والردىء فيه ملونا بهذا اللون الخاص الأثير عنده المحبب لديه . يستهويه كذلك لون واحد من ألوان النماذج البشرية ، هو « الشخصيات المهموسة » التى لا تجهر مرة واحدة فى حياتها ، والتى تنزوى دائماً وتتضاءل وتتفانى وتخنس ، والتى يتوافر فيها الحنان أو الحنين فى همس واستخفاء .

ولقد كتب فى مجلة الثقافة بضع مقالات يستعرض فيها أعمالا فى القصة والرواية لأدباء مصريين وأوربيين . والقارىء لهذا الاستعراض لا يحتاج إلى كبير عناء ليعرف أن آثر شخصية من شخصيات القصص قد أنس إليها وأحبها ، وأطنب فى عرضها والتذ هـذا الإطناب . هى شخصية « فيليستيه » التى صورها الروائى الفرنسى الكبير « فلوبير » فى قصة بعنوان : « قلب ساذج »

تلك الشخصية التى يقول عنها هو : « فى عنوان القصة ، وفى اسم البطلة ما يشخص هذا الأنموذج المؤثر . ولو أنك طلبت إلىّ أن أترجم هذا الاسم وكان ذلك من حق لما وجدت خيراً من « أم السعد » . فإنا نحس فى هذا اللفظ سذاجة القلب وطيبته .

« فليستيه » خادمة من خدم الريف . عقل محدود وقلب رحب . وعن هذه المفارقة ينبع نبل حياتها المتواضعة الحزينة ... مثلها كمثل كلب أمين لأن الأمانة من طبعه ، يقاتل دون سيده ، ولقد يمسه الأذى ويعود من المعركة لا يذكر إلا ما به من جراح يحييها ألمه ... »

ولا علاقة لى هنا بقيمة هذه القصة من الناحية الفنية ، ولا بمقدار إجادة المؤلف فى رسم هذه الشخصية . وإنما يعنينى فقط إعجاب الأستاذ مندور بشخصية معينة

إنها ليست مصادفة عارضة أن تكون شخصية « فيليستيه » أو « أم السعد » هى أحب شخصية من شخصيات القصص إلى الأستاذ مندور بما فيها من « سذاجة وطيبة » و « بحياتها المتواضعة الحزينة » وبما فيها من شبه بالكلب الجريح « تحيى آلامه جراحه » . وأن يكون آثر ألوان الأدب لديه هو « الشعر المهموس » والنماذج التى اختارها خاصة من هذا الشعر بما فيها من « نفس تئن » و « موسيقى حزينة » . وأن تكون دعوته إلى الأدباء ، هى الهمس والتواضع والاختفاء . وأن يكون التنبي والعقاد بما فيهما من فحولة وضخامة وجهارة من الشخصيات التى لا تقع بينه وبينها ألفة فى الأدب أو الحياة ! إنما هى تلبية لمزاج خاص يهفو إلى الحنان والحنين ، ويستنيم إلى الهمس و « الوشوشة » والتهويم !

ولم تكن كذلك ملاحظة عابرة تلك التي لاحظتها على « مزاجه » فاجتماع هذه المصادفات كلها لا يجعلها مجرد مصادفة ، إنما يوحي بدلالة خاصة واضحة !

ولا أعيد هنا ما سبق لي تقريره من حاجة الذي يتصدى للنقد إلى أن يوسع آفاقه فينظر إلى ألوان الأدب وإلى نماذج الشخصيات وأنماط الطبائع من زوايا كثيرة مختلفة ، لا من زاوية واحدة صغيرة

فشخصية « فيليستيه » بصفاتها تلك ، قد تكون شخصية محبوبة تستدعي العطف والرثاء ، ولكن الحياة ليست مطالبة أن تحيل الناس جميعاً « فيليستيهات » ! لتعجب الأستاذ مندور فهناك شخصيات جهيرة جاهرة ، وشخصيات عظيمة شاعرة بما فيها من عظمة ، وشخصيات ضخمة جبارة ، وشخصيات طاغية عاتية ؛ بل هناك شخصيات مريدة شريرة ، وشخصيات دعية داعرة . وكلها جديرة بالحياة ، وجديرة بريشة الفنان . وليس نموذج منها بأكثر أصالة من نموذج آخر في عرف الفن ولا في عرف الحياة . ولم يقع أن التذّ الأستاذ مندور نموذجاً آخر من هذه النماذج البشرية الكثيرة أو عنى باستعراضه فيما كتب ولهذا دلالته بلا جدال !

و « الأدب المهموس » قد يكون لوناً محبوباً من ألوان الأدب — مع وجوب التفرقة بين الصحيح منه والمريض — ولكن الحياة ليست مطالبة كذلك أن تحيل الفنون جميعها همساً ، لأنها لا تستطيع أن تحيل الطبيعة كلها همسات خافتة أو حشرجات لاهثة لتعجب الأستاذ مندور ، فالحياة أرحب من ذلك وأكبر وأعرف بقيمة الأنماط المختلفات !

* * *

وتشاء المصادفات أن يكتب الأستاذ مندور في عدد الرسالة الماضي كلمة في الرد عليّ ، فتنضح بدليل جديد على هذا المزاج الخاص حين يقول :

« وأما عن النثر فما أظن القراء في حاجة إلى أن أدلهم على أن « رثاء أحد الشبان لأمه » الذي أورده الأستاذ قطب لا يمكن بحال من الأحوال أن يقارن « بأمي » لأمين مشرق . فرثاء الشاب المذكور لا إيقاع فيه ولا نبل في الإحساس ولا توفيق في الاختيار للتفاصيل . وكيف تريد من شاب يؤلمه من موت أمه أنهم لم يعودوا يعرفون « بأسرة » أن يصل في فن الكتابة إلى مشرق الذي يذكر « فستانها العتيق » و « يديها اللطيفتين » و « وقع قدميها حول سريره » و « غابة السنديان » وما إلى ذلك من فتات الحياة » ؟

وأريد أن أتجاوز عن شيء من الالتواء في اختيار الأستاذ مندور لإحساس واحد من أحاسيس الشاب المصري في رثاء أمه ليس هو أبرز أحاسيسه تجاه الفاجعة ، وحشده في مقابل هذا الإحساس الواحد خلاصة أحاسيس أمين مشرق كلها ليصل إلى غرض خاص في الموازنة !

أريد أن أتجاوز عن هذا الالتواء في العرض ، وأكتفي بأن أضع بإزائه تصرفي في عرض رأيه هو ، وعودتي في المقال الثاني من مقالاتي إلى توضيح هذا الرأي كاملاً بفقرات ونصوص حين أحسست أنني في مقالي الأول لم أعرضه العرض الكافي لتحقيق الأمانة الأدبية !

أتجاوز عن هذا لأتحدث في لب الموضوع فأثبت أولاً للقراء ذلك النص الذي يمنيه من رثاء الشاب المصري لأمه :

« من نحن اليوم يا أماه ؟ بل ما نحن اليوم عند الناس وعند أنفسنا ، ما عنواننا الذي نحمله في الحياة ونعرف به ؟ إننا لم نعد بعد أسرة ، ولم يعد الناس حين يتحدثون عنا يقولون : هذه أسرة فلان ، بل أصبحوا يقولون : هذا فلان ، وهذا أخوه ، وهاتان أختاه ! »

هذا هو الإحساس الذي لا يعجب الأستاذ مندور : شعور الأبناء — بعد أمهم — بأنهم فقدوا عنوانهم في الحياة أمام أنفسهم وأمام الناس ، وأنهم لم يعودوا يعرفون من هم ، بل لا يعرفون ما هم !

وفي هذا الرثاء أحاسيس أخرى صادقة عميقة . تجاوزها ولم يشر إليها ؛ ففيه الإحساس بالتناثر ، والإحساس باليتم ،